الا يضع امتداداته العمالية والفلاحية بالدرجة الأولى من نشاطه وان يمضي في هذه الامتدادات على مستوى الأمة . وحين تستطيع النظرية الثورية ، بحكم كونها دليل عمل بالدرجة الأولى ، التقاط طبيعة المرحلة وسمة الفترة التي يجتازها الجهد النضالي ، فان هذا الالتقاط انما ينبغي أن يعكس نفسه فوراً على طبيعة التنظيم وعلى أولويات مهامه ، وعلى أسلوب عمله في تلك المرحلة .

من الممكن أن نمضي في تعداد جوانب هذه العلاقة الجدلية بين النظرية وانعكاساتها التنظيمية ، الى ما لا نهاية ، ولكن ما يهمنا بالدرجة الأولى هنا هو على وجه التحديد تتبع هذه المسألة في مجال حركة المقاومة الفلسطينية ، في مرحلتها الراهنة : إن التنظيم الثوري ، بصفته فصيلة طلائعية ، مطالب بالضرورة ، كي يستطيع أن يلعب دوره بصورة فاعلة ، ان ينجح في منع أمراض الواقع الذي يتصدى لتغييره ، من أن تنتقل اليه عبر حركة الافراد القادمين أصلاً من ذلك الواقع والمحملين بالضرورة بعاداته وطباعه وعقليته . وفي العالم المتخلف تتخذ هذه المسألة مظهراً أكثر خطورة منها في أي مكان آخر ، وتشكل واحدة من أولى المهمات العاملة للتنظيم الثوري .

ان ثقافة مجتمع ما هي ، كما هو معروف ، ثقافة الطبقة المسيطرة ، أما العادات والتقاليد فهي تراث أكثر رسوخاً وتجذراً ، وهيمنته أكثر عمقاً ، وبالتالي فان اجتثاث الجزء المتعفن منها هو عمل أشد صعوبة . على أن ذلك كله ، في حال تجاهله ، يمكنه أن يعمل نخراً في التنظيم الثوري أن هو لم يعالج منذ البدء بوعي ، ويستطيع أن ينجح في النهاية في نقل أمراض المجتمع المتخلف الى التنظيم نفسه ، بحيث يفشل التنظيم ، ليس فقط في تقديم نموذج حي ومصغر لمستقبل النضال الذي ينتدب نفسه له ، ولكن ايضاً في تحقيق مهامه الأساسية ، اذ ـ عند ذاك ـ تحل العلاقات الشخصية محل العلاقات الموضوعية ، والرؤية الذاتية محل الرؤية العلمية ، والصدامات العصبوية أو العائلية أو القبلية محل التفاعلات الرفاقية ، وتقديس الشخصية محل القيادة الجماعية ، والفوضى السائبة محل الديمقراطية المركزية ، والتعالي على الجماهير محل التفاعل معها ، والمناكفة المعاندة محل النقد والنقد الذاتي ، والفردية والمزاجية محل الانضباط . ان المجتمع المتخلف قادر على نقل أمراضه الى أي تنظيم ثوري ، ان لم يستطع هذا التنظيم مسلحاً ، بالنظرية العلمية ، ضبط المسألة التنظيمية ، ودون ذلك يفقد هذا التنظيم قدرته على أن يمثل فصيلاً طلائعياً يتصدى لمهمات نضالية ذات دور تاريخي ، بل انه يفقد معناه الأساسي كتنظيم جماهيري يتحرك وسط الجماهير كما تتحرك السمكة في الماء ، ويبادل هذه الجماهير الفهم والود ، ويعرف مشكلاتها ويعرف أساليب حلها العلمية ، ويعلمها دون ان يكف عن التعلم منها . كيف يمكن حل هذه الاشكالات المعقدة؟

اننا حين نقول ان تنظيمات فلسطينية في قلب المقاومة المسلحة ، قد اضحت بعد سنوات قليلة من نشوئها مكتبية بيروقراطية ، فان هذا القول لا يعني بالمستوى المباشر اشكالاتها التنظيمية فحسب ، بل يعني ايضاً افتقادها بالدرجة الأولى للنظرية الثورية التي لا يمكن للمسألة التنظيمية ان تحل دونها ، بالرغم من ان هذا الافتقاد أدى بين ما أدى اليه إلى نتائج تنظيمية واضحة وظاهرة بصورة مباشرة ، تبدو كأنها هي الاشكال في ذاته . ولا شك ان هذه الاشكالات تتدنى في غمار الممارسات ذاتها ، شرط ان تكون هذه الممارسات قادرة على ان

تفعل فعلها في تعديل وتصحيح الرؤية النظرية ، وهنا على وجه التحديد تبرز الاهمية التي لا غنى عنها للعمل التنظيمي ، وربما لم يكن من المبالغة القول بان أحد أهم الاسباب التي أدت الى انفتاح تلك الهوة الشاسعة بين برامج الكثير من الأحزاب العربية وبين تطبيقاتها ، قبل وصولها الى السلطة أو بعدها ، أو حتى في المجال النضالي خارج السلطة ، يعود الى فشل تلك الاحزاب في حل المعضلة التنظيمية . ان خطراً من هذا النوع يجب عدم تقليل أهميته بالنسبة للمقاومة الفلسطينية المسلحة الآن ، ليس فقط بسبب الحساسية البالغة لهذه المرحلة التي هي مرحلة العمل على انضاج ظروف الثورة ، انما أيضاً بسبب الممارسات القتالية المستمرة التي تخوضها التنظيمات الفلسطينية ، والتي يتوقف على استمرارها وتصاعدها جزء كبير من امكانية تحقيق برامجها التحريرية . وبسبب هذه الممارسات القتالية بالذات تبرز قضية تنظيمية أولى ، يجب ان تحتل أولوية الاهتمام في أوساط المقاومة ، وهذه القضية تتلخص في ضرورة تجنب الوقوع في «الصخرية» أو «الصنمية» في بناء تنظيم ما، لان هذا التنظيم مطالب الآن على وجه الخصوص بان يتسلح بحيوية تنظيمية تتناسب مع الاخطار والتوقعات المحيطة به . ويمكننا أن نلاحظ بسهولة ، مع الأسف ، أن مثل هذه الحيوية التنظيمية ، والقدرات المرنة التي تستلزمها ، هي الى حد بعيد مسألة غير معتنى بها في بعض تنظيمات المقاومة كما ينبغي ، هذه الحركات التي تتصرف كأنها حركات «شرعية» ـ قياساً على الأنظمة المحيطة بها والعدو المتربص يومياً بها ـ وعلى العكس ، فان هذه التنظيمات مطالبة بمستوى من الحيوية والمرونة قادرة على نقلها الى مستويات مختلفة من النشاط ، سرية أو غير سرية ، مباشرة أو غير مباشرة ، ظاهرة أو مختبئة ، متجمعة أو منتشرة ، وهذه المستويات تشكل ضرورات لا مهرب منها ، وينبغي توقعها في أي لحظة ، ليس فقط بسبب طبيعة النشاط السياسي والعسكري لمنظمات المقاومة ، ولكن ايضاً بسبب الظروف العربية والدولية المحيطة بها ، والقابلة للتغيير في أي لحظة .

[أن عناصر المقاومة القيادية ـ في معظم التنظيمات ـ مكشوفة تماماً ، وكذلك أساليب عملها وانتقالها واتصالاتها ، وكذلك الى حد بعيد ، تشكيلاتها ومراكزها ومكاتبها ، بل ربما كانت بعض تنظيمات المقاومة الفلسطينية هي الوحيدة من نوعها في العالم التي تستخدم الاسم السري علناً وتحتفظ سراً بالاسم الحقيقي لعناصرها مع انه غالباً ما يكون الشخص الذي يحمل الاسمين معروفاً من قبل الكثيرين هو واسماه في آن واحد ! وبحجة النشاط الدعاوي فتحت بعض تنظيمات المقاومة ابوابها على مصراعيها أمام الصحفيين أو الفضوليين ، فسجلت ملايين الأمتار الثمينة، الموزعة الآن في كل مكان عن اساليب التدريب ، وحجم الدوريات ، وتوزيع المغيرين في المجموعة المغيرة ، وأنواع الاسلحة المستخدمة ، وطرق زرع الالغام المتبعة ، والكفاءات البدنية للمقاتلين.]

إن من قصر النظر حقاً الاعتقاد بان العدو يلزمه أكثر من ذلك ليعرف طبيعة كفاءات وأساليب العناصر التي ستواجهها دورياته . وبحجة «النضال الامني» التي تشبثت بها بعض فصائل المقاومة من ذيلها ، صار بوسع المدعوين « الامميين » أن يمضوا شهوراً في معسكرات المقاتلين ، وان يتفحصوا بفرص كافية وهادئة اساليب التفكير والتخطيط ، ويكتشفوا بمنتهى الحرية المشكلات ونقاط الضعف في أشخاص القياديين والعسكريين وفي أساليب عملهم وقدراتهم التخطيطية ومطامحهم التنظيمية أو الذاتية .

[ان ذلك مهما كانت احتمالات تسربه الى أيدي العدو ضئيلة ، يضعف الى حد بعيد مرونة تنظيم من تنظيمات المقاومة في الانتقال الى شكل تنظيمي مختلف قد تفرضه تطورات المعركة في